قصة واقعية:

إنه أخي . . .

للأستاذ محمد سعيد العريان

كان المطر ينهمر ، والريح العاصف تحمل قطرات الماء إلى وجوه المارة وثيابهم ، فتغمض عيونهم ، وهم يسيرون على حيد الطريق فى حذر ورقبة خشية أن تزلق أقدامهم فيتدحرجوا فى الوحل ، والسيارات منطلقة براكبيها من ذوى اليسار والنعمة ، فتقذف عجلاتها رشاش الماء على جانبيها فيصيب وجوه الناس وأرديتهم ، لا يكادون يدفعون عن أنفسهم شيئاً مما تقذفهم به الأرض أو تنالهم به السماء

وكان الليل فى أوله ...

وفى مُنْعطَف يُفضى إلى أربعة بيوت فى حى « شبرا » كان فتى دون الثلاثين واقفاً تحت السماء وثقة مرتقب وعيناه معلقتان بنافذة مغلقة ، لا يزيد على أن يرفع إليها عينيه حيناً ، وإلى الطريق العام حيناً آخر ، وهو واقف ، والساعات تمضى ، والمطر ينهمر ، والريح تلطم وجهه بقطرات الماء ، وفى يده ورقة مطوية ...

وكان بوابو البيوت الأربعة مجتمعين وراء أحد الأبواب ، وبين أيديهم نار يصطلونها وهم يسمرون ، وكان لكل أسرة من سكان البيوت الأربعة حظ من حديثهم وسمرهم ؛ وهل يجتمع مثل هؤلاء إلا لمثل ذاك ؟ وكانوا فى غفلة عن الفتى ، والفتى عنهم فى غفلة ...

وطال الانتظار بالفتى ونال منه البرد القارس ، ونفذ الماء من ثيابه إلى جسده ، وكان شعره الأشعث يقطر ماء على جبينه ؛ فلم يتنبه إلا من بعد إلى هذه الشرفة التى تلقى ظلالها على جانب من الطريق ، فأوى إلى ظلها يحتمى من المطر والريح فى هذه الليلة الباردة ...

... لولا ثيابه الحائلة ، ونظراته الضارعة ، وذلك الفتور فى عينيه ، وهذا الشحوب فى وجنتيه ، ولولا هذه اللحية التى لم يمسسها حدُّ الموسى منذ أيام — لحسبه من يراه عاشقاً قد أضلّه هواه فأخرجه فى هذا الجو العاصف ، يرجو موعداً أو يتزود بنظرة ... ولكن على وجهه سمات ليس مثلها فى وجوه العشاق !

... ولكن ... ما هذه الورقة المطوية فى يده ... فلعله رسول ... !

وأخذته عيون البوابين وهم فى حلقتهم يصطلون ويسمرون ، فتهامسوا وضحكوا ؛ وأحس الفتى وقع نظراتهم ، فاستحيا ، ثم تفاءل ولوى عنقه ...

* * *

لم يكن ذلك موقفه الأول . لقد طالما وقف « حسّان » هذا الموقف من قبل ، وطالما امتدّ به الانتظار فى هذا المنعطف ساعات ؛ حتى إذا ما انفتحت النافذة المرموقة أسرع إلى الباب وصعد ، أو كتب ورقة فى حاجته فبعث بها مع البواب

من أجل ذلك كان مألوفاً لسكان الحى أن يروه فى موقفه ذاك ، وأن يسكتوا ، ولكن أحداً منهم لم يحاول أن يعرف ما وراء هذا الموقف من سر . ولكن بواب البيت كان يعرف فأسر النبأ إلى صفوته من بوّابى الحىّ ...

وهجست الهواجس فى ضمائر سكان البيوت الأربعة ، فكان لكل واحد مع أهله حديث ... وتناثرت الإشاعات ثم اجتمعت ، فإذا على ألسنة السكان جميعاً خبر واحد : هو أن للسيدة فلانة سرًّا تحاول أن تخفيه إلا عن الفتى وعن البواب ...

... لو وقف « حسان » مثل هذا الموقف كل يوم مرات فى غير هذا المنعطف ما أحس به أحد ولا سأل عن خبره سائل . كم فتى ، وكم فتاة ، وكم رجلاً ، وكم امرأة — يمشون كل يوم ، ويقفون ، ويتواعدون ، ويتلاقون على أعين الناس فى الشوارع الحافلة ، ثم يودع بعضهم بعضاً ويمضى لوجهه ؛ فلا يثير أحد منهم فضولَ عابر ولا يسأل عن خبره سائل . ولكن هنا ، فى هذا المنعطف الذى يُفْلق بابُه على بيوت أربعة قد تعارف

سكانها فرداً فرداً فلا يكاد يخفى على أحدهم خبر جاره ـ هنا فى هذا المنعطف كان وقوف حسان مثار فضول ومبعث ريبة

* * *

ولم يكن حسان عاشقاً ولا رسولاً ولكنه أخو السيدة فلانة زوج الطبيب فلان ...

هل يصدق أحد ؟ ولكنها الحقيقة ...

هذه السيدة التى يراها من يراها فى أبهتها كأنها أميرة ، أخت هذا الفتى البائس الشريد الذى يقف كل يوم هذا الموقف ساعات ، تحت المطر الهاطل ، وفى مهب الريح السافية ، وفى أتون الشمس المحرقة يترقب ، ينتظر اللحظة المناسبة ليكتب إليها فيعود له البواب فيضع فى يده بضعة دراهم ؛ ثم يمضى ، ليعود بعد يوم ، أو بعد ساعات فيقف موقفه يترقب ، وفى يده ورقة مطوية ... . .

* * *

ماذا كان حسان فى أوليته وماذا صار ؟

لقد نشأ فى بيت رفيع العماد عالى الذرا ، ثم كان له ولأخته ما خلف أبوهما من ثروة ومال ، وكان تلميذاً فى المدرسة يوم مات أبوه ، وكانت أخته مسيّاة على الفتى الذى صارت له من بعد . . .

... وآلتْ ثروة أبيه جميعاً إليه ، وإنها لثروة . وهجر الفتى مدرسته ومضى على وجهه يبيع اللذات ويشتريها ، ونصب الشيطان له حبائله من الفراغ والشباب والمال ...

وانتقلت أخته إلى دار زوجها وخلفت قصر أبيها بما فيه ، ولكن قصر أبيه كان أضيق من أن يتسع له ، فأغلق بابه ومضى يتنقل بين أندية اللهو ومجالى الهوى ومسارح الشباب ، وبسط يده على موائد الشراب والقمار ، وتقاذفته الأقدارُ قَدَرٌ إلى قدر ، وأغمض عينيه وسبح فى أوهامه ، وطارت به أمانيه ثم سقطت ؛ وفتح عينيه فإذا هو وحيد شريد صفر اليدين من المال والصحاب ...

وذكر أخته بعد سنين من القطيعة ، فراح يشكو إليها ؛ ودمعت عينا السيدة رثاء لأخيها وشفقة عليه ؛ ثم ذهبت إلى سوانها ففتحته وعادت له بما تملك ...

وخرج الفتى من مجلس أخته برأس مال صالح لو أنه أراد ... وكان يريد ، ولكنه رأى أن يودّع ماضيه بليلة ساهرة من ليالى الهوى والشباب ، ثم يُصبح ... ...

وأصبح ... وعاد كما بدأ ...

واستمرت الكرة تتدحرج ...

* * *

وعاد حسان إلى أخته بعد شهر ، وقال لها وقالت له ؛ ونهضت إلى سوانها ثم عادت فارغة اليد ... وعاد زوجها من عمله ، والتقى الثلاثة لقاء الأهل بعد فراق طويل ...

وأسرت الزوجة حديثاً إلى زوجها ، وباحتْ بما باحتْ وكتمت ما كتمت ... وأخذ الثلاثة فى حديث طويل ...

... وقال الزوج : ... نعم ، منى المال وعليك العمل ، إنها تجارة رابحة ، وإنكَ بها لخليق أن تبلغ الغِنى فى سنوات ، لو أنكَ ...

وتعاهدا على الإخلاص والصدق ، ووثّقا عقد الشركة بالأيمان ودفع الزوج المال ، وخرج حسان لأمره ... ولم يَعد ... ...

لولا الشهامةُ والبُقيّا لكانت الفاصمةَ بين الزوجين ، ولولا دموع السيدة ...

وهمّ الطبيبُ أن يرفع أمره إلى القضاء ، ثم سكت ؛ وماذا يردُّ عليه القضاء من ماله وإن غريمه مفلسٌ لا يجد رمقه ... ؟

وصبر على غيظ ، وسكتتْ زوجه على حسرة وألم ! ...

* * *

وضاقت بالفتى أيامه ، فعاد يتذكر أخته ... وسعى إلى بابها وسأل ، وكان زوجها فى الدار ، فتوارى الفتى يترقب ، وطوى ورقة مكتوبة ودفعها إلى البواب ... وصار هذا شأنهما من بعد ...

وكان يقصدها كلما ضاق به أمره ، ليس بين المرة والمرة إلا أيام ، فتعطف عليه أختُه وتنيله ؛ ثم تقاربت مواعيده حتى صار له راتب مفروض فى كل يوم . وبَصُر به الطبيب مرة وهو خارج فأغضى كأن لم يره . وتجرأ الفتى من بعدُ فاستعلن ، وراح يطرق الباب حين يشاء من ليل أو نهار يطلب ما يطلب ، وترادفت مطالبه ...

وضاق صدر الزوج ونفد احتماله ، فتصبّر ... ثم علم من شئون حسان ما لم يكن يعلم ، فغضب لنفسه ...

لقد يكون من المحتمل أن باقى الرجل ذا حاجة فيدفع إليه بعض ما يستعين به ، ولقد يؤثره على نفسه بما يمنحه ؛ ولكن منذا تطيب نفسه بأن يكون ما يدفع إلى ذى حاجة من ماله وسيلة إلى اللهو الحرام ؟

هكذا قال الطبيب لنفسه فثارت ثائرته . إنه يشقى ما يشق

فى تحصيل هذا المال ، ليسعد به وليسعد غيره ؟ لا لينفقه حسان على موائد الشراب والقمار !

وتحدث إلى زوجته بما فى نفسه وإن كلماته لترتجف من الغضب ، واستمعت زوجته إليه مطرقة ، ثم خلت إلى نفسها لتبكى ...

* * *

ولم يكف حسان ولم تحرمه أخته ، وعاد الأمر بينها وبين أخيها مرا كما بدأ ، واستمرأ المرعى فكشف الحجاب ... وكان ما تناله معروفاً ونافلة فعاد ضريبة مفروضة ، وتكررت مطالبه وكثر مطلوبه ، وألح إلحاح الجانى على مدين مماطل ...

وتعود سكان الحى أن يروه كل يوم مرة أو مرات فى موقفه ذاك ذليلاً ناكس الرأس ، وعينه إلى النافذة أو إلى الباب ، حتى إذا أمكنته الفرصة وثب فكان على باب أخته ، فحيناً يكون الأمر بينهما تشكياً واعتذاراً ، وحيناً يكون تهديداً وصخباً وضجة ، وهم بأخته مرة يحاول أن يضربها لتعطيه ... تعطيه من مال زوجها ما يعينه على ثمن الشراب وتكاليف الشباب ، ثم يتركها لأحزانها ويمضى لهواه ...

وضاقت به أخته كما ضاق به زوجها من قبل ... !

وقالت له مرة وفى عينيها دموع : حسان ، ليتنى كنت أستطيع ، ولكنى لا أطيق أن أخون زوجى فى ماله ، وإنى لأستطيع أن أعطيك ما تستعين به على العيش ، ولكنى لا أعطيك للشراب والقمار !

وضحك الفتى ساخراً وقال : الشراب والقمار ! تريدين أن تربينى ؟ ... إذن فأنت لا تعنين المال عنى للعجز والحاجة ، ولكنك تحاولين تأديبى ... ؟

وبرقت عيناه وأطلت منهما نفس شريرة ، فتراجعت أخته مذعورة تطلب الحماية فى متاع الدار ، ووثب عليها فصرخت ... ثم خرج راضياً ... !

* * *

وطال حديث الناس عن السيدة المصونة ، وقالوا ما قالوا ، وتناولتها الريب والظنون ؛ وبلغها ما يقول الناس فزادت هماً على هم ...

وأوست البواب أن يرده إذا رآه وأن يحول بينها وبينه ، وكانت فى حال من الغضب خيلت إليها أنها تستطيع أن تنسى أن لها أخاً ...

... وجاء الفتى إلى موعده ، وكان زوجها فى الدار ...

* * *

كان المطر ينهمر ، والريح العاصف تلطم الوجوه بقطرات المطر ، وعجلات السيارات فى مرعها تقذف رشاش الماء إلى وجوه الناس وثيابهم ... والفتى فى موقفه لا يحس برد الليل ، ينتظر غفلة ليصعد إلى أخته

وكف المطر ، وهدأت الريح ، وانفتح الباب وخرج الطبيب لبعض عمله ؛ فتسلل حسان إلى الدار ...

ومضت لحظات قبل أن يسمع البواب من يناديه ، فصعد ؛ وقالت السيدة فى غضب وثورة : ألم أطلب إليك ... ألم آمرك أن تمنعه ... ؟

وأطاع البواب فهم بالفتى ليطرده ، ونشبت معركة ...

... وكنت خارجاً لبعض شأنى حين أخذ عينى هذا المنظر ...

وكان شرطى يسوق الفتى وقد اجتمع عليه البوابون الأربعة والفتى يتوسل ، ودخلت فى الزحام أريد أن أعرف ، وكانت عينا حسان إلى النافذة ، وثمة سيدة تنظر ...

ورأيت الفتى الذى أخذت عيناى من قبل مرات ، وكان يبكى وينظر إلى النافذة .. وكانت السيدة تبكى له ...

وقال البواب : لقد أمرتنى ... أمرتنى أن أدعو له الشرطة، إنه لا يكف عن مضايقتنا ليل نهار...

وقال الفتى بذلة : اسألها يا سيدى إنها ... إنها لا تريد ...

وقالت السيدة وصوتها يقطر أسى : دعوه ... !

وغضبت وثارت غيرتى .. وذهبت نفسى مذاهب من الريبة وسوء الظن ، وأطل الفضول من نوافذ البيوت الأربعة ... وتوقع الجيران أن يشهدوا فضيحة ... وظنوا الظنون ...

وعاد الفتى يتوسل ، والبواب يتشدد ، ويد الشرطى فى عنق الفتى وعيناه إلى هناك ... وعادت السيدة تقول فى ضراعة : دعوه أرجو أن تتركه يا سيدى ؛ إنه ... إنه أخى ... !

وأغلقت النوافذ المفتوحة ، وتوارت الرءوس المطلة ، ومضى الشرطى والبواب بالفتى ؛ وجلس الجيران يتهامسون ؛ وكانت سيدة تجلس وراء النافذة وحدها ، فى وجهها أظفار دامية ، وفى عينيها على الذى أدماها دموع ...

محمد سعيد العريان